٧١ زكريا الأنصارى
مجدد القرن التاسع الهجرى

الحديث عن زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى، المعروف فى كتب السير والتراجم بالقاضى زكريا الأنصارى، والذى كان فى مقدمة المجددين فى الإسلام على رأس مائة العام التاسعة، يجرنا للحديث عن أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن عالم الدين كان لا يقتصر - فى علمه - على علوم الدين ومنها الفقه والتفسير والحديث فحسب، بل كان شبيهاً بأجداده العرب الأقدمين، عالماً شاملاً، فإلى جانب علمه بالدين نراه يهتم بعلوم أخرى فلا يقتصر اهتمامه بعلوم لها اتصال بالدين، كالنحو والصرف واللغة، والمعانى والبيان والبديع، والمنطق، والتصوف... بل امتد كذلك إلى علوم أخرى كالطب، والحساب والجبر، والمقابلة، والهيئة والفرائض، والهندسة، وغيرها من العلوم المدنية التى كان أسلافنا من العرب الأقدمين يدرسونها ويتوافدون عليها إلى درجة أن الجامع الأزهر منذ أُنشِئَ اهتم بها وقام بتدريسها.

ولو أن اهتمام الأزهريين بهذا المنهج العلمى الشامل قد استمر لَظَهَر من علماء الأزهر علماء فى الطب والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم غير الدينية. لكن فى الوقت الذى أهمل فيه الأزهر هذا المنهج الشامل كانت أوربا تستعد لنهضتها الحديثة وعدتها فى ذلك ما أخذته عن العرب الأقدمين، من أصحاب هذا المنهج الشامل الذى كان يمثلهم ابن سينا، وابن رشد، والرازى، وابن الهيثم، وابن حيان، وغيرهم ممن كان الواحد منهم يتقن الطب، أو الهندسة، أو الرياضيات، أو الفلسفة، إلى جانب إتقانه للحديث والفقه والتفسير.

أقول لو أن الأزهر استمر على منهجه الذى كان متبعاً حتى القرن التاسع مثلا، الذى عاش فيه القاضى زكريا الأنصارى، لكان للأزهر اليوم شأن آخر، لكن الذى حدث أن الأزهر بعد ذلك رأى الاقتصار على العلوم الدينية والشرعية، وما يتصل بها من فقه ولغة وأدب. وإذ امتد اهتمامه إلى غير ذلك من علوم، فإن اهتمامه يكون سطحياً بسيطاً لا يغنى.

ويبدو أن اهتمام رجل الدين بهذا المنهج العلمى الشامل كان له أكبر النتائج ـ على الأقل ـ المستمدة حتى من حضارتنا العربية، وإلاَّ فما معنى العودة إلى الإهتمام بهذا المنهج الشامل لرجل الدين بحيث يأخذ شكل المعارف الموسوعية الجامعة؟

لقد طُوِّرَت جامعة الأزهر فى نهايات القرن الرابع عشر الهجرى وستينات القرن العشرين لتغطى هذا الاهتمام وتقوم به، حيث أنشئت بهذه الجامعة كليات علمية كالطب، والهندسة والتجارة، والزراعة، واللغات الأجنبية، وغيرها من الكليات ذات الاهتمام بعلوم الدنيا.. وكأن الأزهر يعود إلى سابق منهجه الشامل.. وهى عودة محمودة لا يختلف فى فائدتها أحد يهمه أمر الدين الإسلامى، وكيف يكون رجاله على علم بعلوم الدين والدنيا معاً.

ولعل فى سيرة القاضى زكريا الأنصارى خير مثال على ذلك، فنراه ينشأ على حفظ القرآن الكريم فى قريته «سنيكة» التابعة لمحافظة الشرقية. التى ولد فيها عام ٨٢٦ هـ. فلا يلتقى بذلك، وإنما يتجه إلى دراسة مختصر التبريزي فى الفقه، لينتقل من الشرقية إلى القاهرة، حيث يلتحق بالجامع الأزهر، فيأخذ الفقه عن القاياتى، والعلم عن البلقينى، والتفسير عن شيخ الإسلام ابن حجر، والنحو عن الشمنى وابن همام.

ولا يكتفى بهذا القدر من العلوم التى تؤهله لأن يكون عارفاً أو عالماً بدينه الإسلامى، وإنما يتجاوزه، فيدرس علوماً منها الصرف، والأصول، واللغة، والهيئة، والهندسة، والميقات، والحساب، والجبر والمقابلة، وعلم الحرف، والتصوف، وغيرها.

ولم يزل هذا المجدد مشتغلا بطلب العلم على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة، والأدب والعفة، والابتعاد عن زخرف الحياة، مع شرف النفس، ورجاحة العقل، وسعة الصدر، والاحتمال والصبر، حتى أذن له شيوخه فى الإقراء، والإفتاء.

ثم ينتقل القاضى زكريا الأنصارى إلى مرحلة جديدة من حياته، حيث يتصدى للتدريس فى حياة الكثيرين من شيوخه وأساتذته، وينتفع به طلاب العلم جيلا بعد جيل، بل ويستطيع أن يسهم إلى حد كبير فى تدريس بعض العلوم المتصلة بالحياة أو يضع مناهج لها، ومن هذه العلوم التصريف والمعانى والبيان، والبديع، والمنطق، والتصوف، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة، والهندسة، وغير ذلك من العلوم التى كانت تدرس وقتئذ بالأزهر، ولم يكن الأزهريون قد أهملوها ونظروا إليها نظرة أقل من نظرتهم إلى العلوم الدينية المحضة. بدعوى التخصص فيها.

وطبيعى والأمر كذلك أن يعلو قدر هذا العالم المجدد المتنور، وذلك بما حازه من علوم أفاد بها غيره، وطبيعى أيضاً أن يولى المناصب المرموقة كالتدريس فى مقام الإمام الشافعى، وهو أرفع منصب علمى وقتئذ. ثم يتولى ويشرف على مدارس وخانقاهات صوفية. إلى أن يتولى منصب قاضى قضاة مصر بعد امتناع منه كثير، وتعفف أكثر.

ويمارس القاضى زكريا الأنصارى العمل فى القضاء، ويكون فى عمله قدوة ومثلاً لمن يجئ بعده فى هذا المنصب الحساس، ويستمر فيه مدة ولاية السلطان الأشرف قايتباى، ويستمر بعد هذا العهد بدون توقف منه أو إيقاف من السلطان، إلى أن يكف بصره، فيستبعد بسبب آفة العمى. ولكنه برغم ذلك يواصل التدريس والإفتاء فى أمور الدين والدنيا، والتصنيف فى الأدب والثقافة.

ولهذه الجهود يُعَدُّ القاضى زكريا الأنصارى مجددًا على رأس القرن التاسع الهجرى ـ كما يسجل الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ـ لشهرة الانتفاع به، لكثرة تصانيفه، واحتياج أغلب الناس إليها فيما يتعلق بأمر دينهم ودنياهم.

ولا ريب أن هذا المجدد قد أسهم فى أمور كثيرة، فى مقدمتها أمران جديران بالاعتبار.

الأمر الأول: أن الجامع الأزهر فى عهده لم يكن يضيق بدراسة علوم الهندسة والطب والرياضيات، وما إليها من العلوم بمعناها الدقيق، لأن القاضى زكريا تعلمها، ثم اشتغل بتدريسها والتأليف فيها، ولا غرو فى ذلك، فقد كان الجامع الأزهر أكبر معهد على مستوى العالم العربى، ولذلك كان لعلمائه وطلابه رغبة فى تحصيل كل العلوم، وكانت لهم همم كبيرة فى ذلك.

والأمر الثانى الذى تيسر بفضل وجود هذا المجدد، أن هذه العلوم غير الدينية قد تبسطت وتيسرت، حتى أمكن دراستها لطلاب العلم بالأزهر، بعد أن كانت دراستها مقصورة على عبقريات الحضارة العربية الإسلامية من أمثال الكندى، والرازى، وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة.

ويظل هذا المجدد مواصلا طريق العلم مدرساً وقاضياً وصاحب فتوى، إلى أن يتوفى عام ٩٢٥ ويدفن بالقاهرة بمسجد الإمام الشافعى.

* * *